آراء وأنباء

الأستاذ الرئيس خليل مردم بك

(١٨٩٥ ــ ١٩٥٩)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خليل مردم بك

(١٨٩٥ ـــ ١٩٥٩)

في صبيحة الثلاثاء الواقع في ١٥ محرم ١٣٧٩ هـ ، والموافق لـ ٢١ تموز ١٩٥٩ ، قضى رئيس مجمعنا العلاّمة الشاعر الأستاذ خليل مردم بك ، إثر مرض لازمه شهوراً ، فبكته البلاد ، وشيعه أعلام العرب ، ومشى وراء نعشه رجالات البيان . وكان لنعيه رنة حزن وأسى في القلوب جميعاً ، لما كان عليه الراحل الفقيد من مزايا نادرة وصفات باهرة في الخلق والأدب والانتاج . وبموته انطوى علم من أعلام الجيل الماضي ظل خفاقاً منذ أهلّ القرن .

كان الفقيد نموذجاً رائعاً من رجال البيان لصدر هذا العصر في أدبه وانتاجه ، يلز بالفحول من الشعراء في مصر والعراق ولبنان ، ويلحق بكبار الأدباء من الصفوة المختارة ، رفع اسم بلاده عالياً ، وقضى حقها كاملاً ، وناضل في سبيلها كل حياته ، فأصبح منارة يستضيء بها الجيل الصاعد ، وغدا أمثولة تحتذى وسيرة تقرأ . فقد كان من الأوائل الذين استساغوا الأدب الضخم والعبارة الفخمة والشعر المتين ، عكف على تراثنا الخالد ، وأفاد منه ، وحببه إلى الناس فخدم الأدب المعاصر خدمة لا تنسى ، وكان صلة الوصل بين القديم والحديث ، جمع أطايب القول وأحاسن الصور ، وعرضها في أجمل ثوب وأحسن حلي ، وقاسى في سبيل ذلك ما لا يقاسيه جيلنا من فقد المصادر ، وندرة الخزائن ، وقلة الثقافة ، وضآلة التعليم ، وجفاف الينابيع .

كان القرن التاسع عشر يتنفس آخر سنيه ، شقياً بما شهد من ظلم وعسف وضيق ، وكانت الأنوار تظهر حيناً وتختفي أحياناً . وفي سنيه الأخيرة ، قبل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن يموت هذا القرن ، ولد خليل مردم بك حوالي سنة ١٨٩٨ [١] بدمشق ، لأب هو أحمد مختار مردم بك ، وأم هي السيدة فاطمة الحمزاوي ابنة السيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق وعلامتها ، وصاحب التصانيف المعروفة من شعر ونثر . ولم يكن له إخوة من الذكور ، وإنما كانت له خمس شقيقات ، فدفع به أبوه إلى التعلّم ، وسلكه في مدارس ذلك الزمان ، وهي ضعيفة الثقافة ، فنشأ الصبي كما نشأ أقرانه ، ودرج في مدرسة الملك الظاهر الابتدائية . ولكنه ما كاد يتم الرابعة عشرة من عمره حتى فقد أباه ، ثم فقد أمه بعد أربع سنوات ، فغدا في صدر حياته يتيم الأب والأم ، يسير بين أشواك الدنيا حذراً قلقاً متردداً ، حييّاً خجولاً ، وكأن المصيبة طبعته بطابع الصمت والحذر والسكون ولازمه ذلك طوال حياته .

ومضى الشاب إلى إكمال تحصيله رغم يتمه ، يتم علمه على أساليب تلك الأيام ، فأقبل على الحديث والفقه والنحو والصرف ، فدرس الحديث على المحدث الشيخ بدر الدين الحسني ، والفقه على قاضي الشام الشيخ عطاء الله الكسم ، والصرف والنحو على الشيخ عبد القادر الإسكندراني ، وهم علماء دمشق والمقدمون في مجالي الثقافة والمعرفة ، فأفاد منهم ، وأخذ عنهم ، حتى علقت به أساليب القدماء وطرقهم ، فوقف على العربية وهو ما يزال يزحف نحو العشرين من سنيه ، وراح يقرض الشعر ، ويتلهى بقوافيه ، يقلّد القدماء ويجري على سننهم حتى أصبحت له ملكة في الشعر ، فدار اسمه ولمع صيته في بلده .

وانقضت سنة ١٩١٨ بويلاتها وشرورها ، وجلا الأتراك عن دمشق ، فعيّن الشاب مميزاً لديوان الرسائل العامة ، ينقح ما بين يديه من أوراق ،

---

(١) ذكر بروكلمن ٣/٣٥٦ في ترجمته للفقيد ، أنه ولد سنة ١٨٩٥ ، ولعله نقلها عن كامبفماير الذي استكتب أدباء دمشق سيرهم ، بأقلامهم . ولكننا نتابع في حساب السنين ما كان الراحل يريد أن يجعله سنة لولادته في أوراقه الرسمية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويختار أشرف الألفاظ ، ويمارس الوظيفة مترقياً في مراتبها حتى أواخر سنة ١٩١٩ .
وقد شهد خلال هذه الحقبة كثيراً من الرجالات الرسميين عن كثب ، واستمع الى أحاديثهم ، ورأى بعينيه تاريخاً جديداً للأمة العربية يسطر ويكتب ، فاهتز قلبه للأمجاد ، وتفتحت نفسه للمناصب ، وظل عمره كله يذكر تلك الحقبة السعيدة من سنيه ، ويتغنى بأنه رأى أمته تنشئ الحياة وتبني العز من جديد بعد ركود طويل . فآمن بعروبته ، وتعشق بطولاتها ، وسحر بتاريخها ، وأحب أن تعود كما كانت لتسابق النجوم وتصافح المفاخر ، فمال قلبه إلى الشعر الوطني ، وتغنى لسانه باستقلال العرب .

ولما دخل الفرنسيون دمشق ترك الوظيفة ، وانصرف عن خدمة القوم ، وتغلغل في قلبه كرههم ، وعرف بذلك كل حياته ، وعشق الشعر المهجري ، وأطال صحبته لإنتاج الرابطة في نيويورك ، فكان من ذلك أن أسس مع صحبه « الرابطة الأدبية » ، دخلها معه أدباء ذلك العهد ، وفيهم : محمد الشريقي ، ابيفانوس ، شفيق جبري ، حيدر مردم بك ، سليم الجندي ، حليم دموس ، أحمد شاكر الكرمي ، فيلان الرياشي ، عبد الله البجار ، جورج ريس ، نسيب شهاب ، ماري عجمي ، عز الدين علم الدين ، نجيب الريس ، فخري البارودي وغيرهم ...

وعقد أعضاء الرابطة أول اجتماع لها في شهر آذار سنة ١٩٢١ ، ووضعوا قانوناً لجمعيتهم ، وانتخبوا خليل مردم بك رئيساً للجنة الإدارية وعمره ثلاث وعشرون سنة .

وكانت الجمعية تعقد كل أسبوع اجتماعاً ، يلقي فيه أحد الأعضاء محاضرة في موضوع معيّن . ثم أنشأت الرابطة مجلة باسمها « مجلة الرابطة الأدبية » فكانت من خيرة الصحف لذلك الزمان في موضوعاتها وفي أسلوبها ، تختار أطايب القول في الشعر والنثر ، وتترجم عن خول الغربيين ، وتعنى باللغة ومفرداتها . وقد صدر العدد الأول منها سنة ١٩٢١ ، وفي صدرها شعارها : « انشاء جامعة أدبية تلم شملهم وتوحد قوتهم » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي هذه المجلة نشر الفقيد شعراً ودراسات ، وكان الشعر في الغزل ، وهذه مطالع بعضه :

الهوى يا مي صعب فارحمي من لك يصبو

أما ينفك قلبك مستطارا إذا ما البرق أومض واستطارا

هل تذكرين بسفح دمر ساعةً فيها افترشت بدي وفضل ردائي

وهذه القصائد مشبوبة العاطفة ، مضطرمة اللوعة ، تمثل الشاب في هذه السن ، وقد تفتح قلبه للهوى وخفقت ضلوعه للحنين ، وسالت في دروب حفظه أشعار البحتري وابن المعتز وقصائد العذريين ، فكان صورة عنهم في الرقة والأسلوب وفي كثير من معانيه ، فقد سلك الشاب في حب الشعر القديم والتراث الخالد منذ هذه السن مسلكاً عجيباً ، وعكف على المخطوطات ، وأخرج مع زملائه من أعضاء الرابطة كتاب «معاني الشعر» للأشنانداني ،[1] وطبعه بدمشق سنة ١٩٢٢ . وطفق بعد ذلك يكتب مقالات ودراسات في مجلة المجمع العلمي عن المخطوطات ونقد الكتب المحققة ، فكان لأساتيذه القدماء فيما نظن أثر في توجيهه هذه الوجهة ، بل كان للمحققين في زمانه يد في هذا الحب ، وفيهم الشيخ طاهر الجزائري والأستاذ محمد كرد علي .

وظل الرجل يعمل للرابطة وحلقاتها ومجلتها حتى شعر المستعمرون أنه محور يقظة ، وموضع بعث فأغلقوا المجلة ، وحلوا الجمعية ، وانتثر العقد ووقفت الرابطة بعد أن قامت بنشاط منتج ، وأصدرت من المجلة تسعة أعداد سدت بها فراغاً كبيراً .

***

ولا شك في أن هذا النشاط وهذا الانتاج دفعا بالمجمع العلمي العربي إلى تقدير شاعرنا وانتخابه عضواً في المجمع [2] ، فتقدم اليه برسالة عن « شعراء الشام

(١) طبع بنفقة الرابطة سنة ١٩٢٢ في ٢٠٨ صفحات .
(٢) انتخب في ٩ كانون الثاني سنة ١٩٢٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في القرن الثالث» نمت على حذق وفهم وحبّ عميق للشعر الأصيل، وعكوف على هذه الطبقة المختارة من شعراء العرب، ظل فقيدنا يغذيها بقراءاته وبحوثه، وجهوده في جمع الدواوين طوال عمره حتى كاد يستكمل حلقة الشعر في الشام منذ القرن الثالث حتى السابع. وقد نشر دراسته هذه في مجلة المجمع [1] أولاً، ثم طبعها على حدة في كتاب صدر سنة ١٩٢٥.

وهكذا احتل الرجل مقعداً من مقاعد الخالدين. وكانوا خلاصة الأعلام وسادة الثقافة والبيان، ينظر اليهم العرب في أقطارهم على أنهم معقد الأمل وحصن العربية ومصنعها الضخم، عنهم تصدر المقالات الرصينة، وفي دارهم تعقد الندوات الأدبية الرفيعة، وبيدهم تحرر أوثق مجلة علمية نشأت مع الاستقلال العربي. وما زالت كذلك إلى اليوم تطيف على عالمنا كؤوس المعرفة صافية، ودراسات الأدب نقية، خالية من شوائب العصر، بعيدة عن السياسة كل البعد، حتى غدت منارة وحدها بين صحف تولد وتموت، وتظهر وتطوى، ولكنها كالمجمع نفسه جبلت على الخلود، والخلود لا يمسّه عيب ولا يلحق به نقصان. وكان هذا المجمع مثالاً ناجحاً احتذاه علماء القاهرة وبغداد، فأنشؤوا في كل من الحاضرتين مجمعاً ومجلة ليسيروا بهما على غرار دمشق.

وفي هذه المجلة نشر الفقيد مقالات يجب أن تجمع ليوم ذكراه، كما فعل في جمع مقالات غيره، فقد كان الرجل مثال التواضع والتفاني فصرف همته إلى دواوين غيره ومقالات زملائه، ولا يصح أن ينصرف زملاؤه عن العمل لمقالاته ودراساته.

وفي هذه السنة نفسها (١٩٢٥) نشر فقيدنا «كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا» وكتاب وقف فاطمة خاتون بنت محمد ابن السلطان الملك

---

(١) انظر مجلة المجمع سنة ١٩٢٥ (ص ٢٩٤ وما تليها) وكتاب شعراء الشام، طبع دمشق سنة ١٩٢٥، في ٩٦ صفحة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأشرف قانصوه الغوري » وكتب على الغلاف : « وقف على طبعها خليل بن أحمد مردم بك »[1] .

ولم تكن أعمال النشر والتحقيق والمقالة وحدها هي التي تستبد بوقت فقيدنا ، فقد كان يؤمن بأن للنضال عليه حقاً ، لذلك عاش حياته كلها بعمل للأدب ويتغنى بالثورة ، فهو في برزخين أبداً ، يتنقل من هذا إلى ذاك ، كما يتنقل الطير من فنن إلى فنن ، فكان ينظم الشعر في الجمال كما ينظمه في خير وطنه وفي إثارة الشعب ورد الطغيان ودفع الظلم ، فكانت منه قصائد عامرة نظمها في الوطنية والعروبة وطرد الفرنسيين ، ردّدتها دمشق وتغنت بها ، فلما نشبت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ، وقام اللهب والحريق والقتل في جنبات الغوطة الغناء وفي رحاب دمشق الفيحاء أرسل قصيدته المشهورة « يوم الفزع الأكبر » ومطلعها[2] :

أمدَّه الدمع حتى غاض جائده فمن بأدمع عينيه يرافدُهُ

فتناقلها الناس ، ونشرتها الصحف العربية ، وتلفت الفرنسيون إلى هذا النور ليطفئوه ، وأرسلوا في اثره يطاردونه ، ففر إلى لبنان ، واستخفى فيه بقرية « المروج » بمساعدة صديقه الشاعر أديب مظهر . وما علمت السلطة بوجوده هناك حتى راحت تلاحقه للقبض عليه ، فهرب الى الاسكندرية سنة ١٩٢٦ ، ونزل عند شقيقته السيدة فائزة زوجة المرحوم الدكتور أحمد قدري (وهو من أعلام الثورة العربية ومن رجال فيصل الأول المقربين) .

ولبث الفقيد في مصر أربعة أشهر كان لها أثر كبير في حياته ، فقد كان يقرأ عن بعد لأعلام المصريين ، ويستمع الى أخبارهم ، ويتلقف آثارهم ،

---

(١) طبع بدمشق على نسخ قليلة ، سنة ١٩٢٥ في ٣٠٠ صفحة .
(٢) انظر ديوان الثورة ، جمع محمد ياسين عرفة ، مصر ١٩٢٦ ، ص ١٢٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويشتاق إلى معادن العربية من مكامنها ، فلما بلغ اليهم اتصل بالأعلام ، وعرفهم كما عرف من قبل رجال السياسة العربية في بلده . وقد عرفنا من أحاديثه الشخصية ما كان يلقى من إكرام وما يصيب من ود ، ورجوناه أن يسجلها لجيلنا ، فكان منه مقالتان في ذكرياته مع حافظ ابراهيم بالاسكندرية وحلوان ، نشرهما في مجلة المجمع العلمي العربي [1] ، تحدث فيهما عن شاعر الشعب في أدق عيشه وحركاته .

وتأثر الفقيد من غير شك بجو الاسكندرية وثقافتها ، فعزم على الدراسة في الغرب ، وقرر أن يقصد الى انكلترة ، فسافر اليها وانتسب إلى جامعة لندن ، ولقي فيها آفاقاً رحبة واستمع إلى كتاب الإنكليز ، وظل طوال عمره يذكر أثر ذلك ، وما كان من استماعه إلى ويلز وغيره من الكتاب الغربيين . ولبث في تلك البلاد أربع سنوات درس فيها الآداب وحصل على شهادة تعادل الدكتوراه . وقد كان لوقوفه على الأدب الانكليزي ورحلته في الغرب أثر هام في شعره . وظهر الأثر في قصائده : سكران وسكرى ، والغوطة ، وبردى والرقص ، فجمع جزالة العبارة إلى براعة الصورة ، وأفاد من الشعر الفحل في مصر ، واللون الغربي ، ووفق في الموسيقى والخيال ، وارتفع بالشعر الشامي المعاصر إلى مراتب الجودة والتوفيق .

وعاد إلى دمشق سنة ١٩٢٩ مشوقاً ظمآن إلى ربوعها ومواطن صباه ، والجراح تحت ردائه لما أصابها من نكبات وهزات ، فاستقبلها بقصيدة لعلها من خير شعره ؛ حيا فيها عاصمة بني أمية ، وجعل عنوانها « سلام على دمشق » قال في مطلعها :

تلاقوا بعد ما افترقوا طويلا فما ملكوا المدامع أن تسيلا

فاهتزت مشاعر قومه ، وصفق له الأدباء ، ورأوا فيه شاعراً ألان القوافي ليراعته ،

---

(١) انظر مجلة المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥٦ (ص ٣٥٣ - ٣٧٠) ، (ص ٥٢٩ - ٥٤٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فأكبروه وأحلوه مكانة الود والإكرام . وعيّن مساعداً لرئيس الأدب العربي في الكلية العلمية الوطنية ، وظل فيها تسع سنوات من (١٩٢٩ — ١٩٣٨) وفي هذه الكلية تخرج على يديه أدباء وعلماء سلكوا في دروب المعرفة ، ورفعوا لبلدهم في مختلف الميادين ذكراً لا ينسى .

وفي سنة ١٩٣٣ حنّ من جديد إلى الصحافة الأدبية ، فأصدر مع الدكاترة جميل صليبا ، وكاظم الداغستاني ، وكامل عياد مجلة « الثقافة » جاء في مقدمتها كلام يبين عن بعض أهدافها : « للأدب أبلغ أثر في تكوين هذه الثقافة ، فهو روح النهضات ، ومظهر حياة الأمة ، ولقد طغت عليه جلبة السياسة في هذه الأيام حتى كادت تخفت صوته في خوضائها ، فأصبح من الواجب إقالته من عثرته والأخذ بيده ، وتقديس حرمه ، وانتهاج طريق واضح له في الدراسة والوضع » . وهذه السطور تغني عن شرح كثير في وصف الحال ورسم البواعث التي أهابت بالفقيد ورصفائه إلى إنشاء هذه الصحيفة .

وكانت « مجلة الثقافة » صورة للصحف الراقية في بحوثها ومقالاتها وصورها الفنية ، تختار الشعر الجميل والقصص البديع والترجمات الحسنة . وكان للفقيد فيها شعر ونثر ، كما كان في مجلة الرابطة من قبل . ولكنه هنا أبلغ وأحسن ، فقد سار الفقيد بخطى نحو الجمال والإتقان ، وأصبح يفهم الشعر على أحسن ما تفهمه الآداب الراقية . وكتب مقالاً نشره في هذه المجلة تتخذه دليلاً على أسلوبه في الكتابة والنثر ، وشاهداً على ما نقول من فهمه لرسالته في الأدب قال [1] :

« الشاعر : مخلوق خالق ، وروح خالد ، يصور من خفقات قلبه وخلجات ضميره وإبداع فكره أشباحاً ينفخ فيها من روحه فاذا هي من الخالدين . ملك أو جني ، هبطت روحه من عالم الغيب ، فتمثلت بشراً سوياً ، فهو مع بني الإنسان ،

(١) انظر مجلة الثقافة بدمشق ، تموز ١٩٣٣ (ص ٣١٧ - ٣١٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكنه غريب عنهم ، فما يزال يصيخ إلى هينمة الملائكة في السماء أو عزيف الجن في الصحراء ، ويستشف من وراء الأفق عالماً نورانياً ، ويتبيّن في الجو مسارح أنسه الأولى ، ومعاهد هواه القديم :

لابنة الجني في الانس طلل ....

فهو يقظان حالم ، أنكر الناس أمره وحاروا في شأنه ، وقالوا : شاعر أو مجنون .

« يأنس بالوحدة لأنه من نفسه في عالم ، ويؤثر السكون ليسمع جلجلة الوحي وأصداء الأرواح ، ويسكن إلى الظلام ليشاهد الرؤى والأشباح ، ويغمض عينيه ليرى ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » .

وهذا أسلوب جميل ، يجري بغير تكلف ، ويقتبس من القرآن الكريم ، ويسمو في فهم الشاعر ، لأن كاتبه يصف نفسه في حال الوحدة والسكون حين يصطاد خفقات قلبه وما يحبك في صدره وما يشع في بصره وما يفيض من عينيه . والذين أطالوا الاستماع بحديث الفقيد وسكروا معه بكؤوس الصداقة هم الذين يعرفون كيف كانت تحوم أشباح الشعر حول عينيه وبصره وفمه ، وهم الذين يعرفون نشوة الشاعر حين يحس أضلاعه تهمس همساً ألذ من نسمات الصباح على أوراق الشجر مع أوائل النور ، يجوس خلالها الشعر وتطرق القوافي ، فينشرح صدره وتضحك عيناه .

والأدباء الذين قرأوا الشعر المعاصر يعرفون أن شعر الفقيد كان يحوم حول جمال الكون ، وفتنة المرأة ، وجلال الدين ، وعظمة الحرية ، وكرامة الوطن . ويعرفون أنه كان ينسج من خيوطها قصائده منذ افتر شبابه حتى خبا آخر شعاع في عينيه ، فكانت أغاني وألحاناً أسلمها إلى كراريس دفن فيها أقدس أسراره ، ولم يفضح منها إلا ما ارتضى خطبته وإشاعته[1] .

(١) هذه الكراريس يقوم مجمعنا العلمي بطبعها ونشرها إحياء لذكراه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي هذه الكراريس ألوان من الشعر والخيال ، ليس هنا مكان الافاضة فيها ، فهي تلم بصور الغزل على ألوانه ، منه اللين ومنه العنيف ، وفيه القبل تترى والأشواق تتسابق ، فتلحق بالرومانسية الأوربية ، وتتصل بالأساليب العباسية ، وهي في كثرتها كشعر العذريين ، أو الغزلين المتعففين يسقط على القبلة ولكنه لا يهوى إلى ما بعدها ، فيقول :

فكأننا إذ ذاك زوج من قطا ... يتطاعمان بروضة غنـاء
قد كان في طوقي بلوغ مآربي ... لولا زواجر عفـةٍ وحيـاء

وهذا يذكرنا بالعباس بن الأحنف أو بأبي فراس الحمداني ، حين يقدر العاشق ويعف . وهذه الكراريس تغص بالصور الفاتنة في وصف دمشق وغوطتهـا وأنهارها وجبالها ، وليلها ونهارها ، وما فيها من مؤذن وأذان ، وما في أعيادها من ضحايا تلم فيها مدية الجزار ، وما في الجو من فراش ، وما في الأرض من زنبق . وهو في ذلك كله مؤمن أعمق الايمان بالله ونبيّهِ يقول فيه :

شب أميًّا ولكن ... نال في العلم الإمامة

وهو وطني مخلص لعروبته وبلاده ، يكرم الأبطال في ميسلون فيناجي « يوسف العظمة » :

غضبتَ لأمة منها « معدّ » ... فأرضيتَ العروبة والإلـهـا
فيالك راقـداً نبهت شعبًا ... وأيقظت النواظر من كراها

ويكرم دمشق في الثورة التي ألهبتها ويغنيها إثر عودته من لندن :

دمشق ولستُ بالباغي بديلاً ... وعن عهد الأحبة لن أحولا
ذكرتك واللهيبُ له وميضٌ ... ينشّر من شقائقه ذيولا
له وهج إذا وازاه طـير ... رماه ولو علا في الجو ميـلا
وأمطرت الرصاص فكان وبلاً ... شديد الوكف منهمراً وبيـلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولعله في هذا الشعر القليل الذي روينا يشير بنفسه الى طريقته وأسلوبه ، فما يحوجنا إلى دليل أو تحليل ، بل لعله إذا جمع إلى النثر الذي بسطنا وهو قليل كذلك ، يكفي لرسم صورة عن أدبه وقد اشتد عوده واستد ساعده ، ونضج فنه .

وخلال هذه السنوات السعيدة الخصبة (١٩٣٣ — ١٩٣٩) التي كان يدرّس فيها الأدب العربيّ بالكلية العلمية ـ كما قلنا ـ راح يؤلف الدراسات الأدبية ويترجم لفحول الأدباء القدماء ، فأصدر عدداً من الكتب جعلها بعنوان : « أئمة الأدب » ، ونشر منها خمسة : « الجاحظ ، وابن المقفع ، وابن العميد ، والصاحب ، والفرزدق »[1] وهي دراسات مبسطة تجمع حياة الشاعر إلى مختار شعره ، وتعرضه عرضاً واضحاً موفقاً تعين طلاب البكالوريا وتفتح باباً للكتب المدرسية في الأدب العربي ببلادنا .

*
* *

ووقعت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ، وقد جاوز الفقيد الأربعين من العمر ، وعرفه العالم العربي ، وأكبره قومه ، واحتل بين إخوانه في المجمع مكانة سامية ، فانتخبوه أميناً للسر سنة ١٩٤١ ، وراح يعمل سحابة أيامه مع الرئيس الأسبق المرحوم محمد كردعلي في انسجام وصفاء .

وكانت المجالس الصباحية في المجمع أشبه بمجالس القدماء تطوف فيها كؤوس النوادر الأدبية ، والصفحات العلميه ، فكان الصبوح في « دارة الخالدين » أشهى ما يشرب الناشئة وألذ ما يعالج الشيوخ ليومهم . وكأنّ الحرب ما دارت منها رحى ، وكأنّ ظلام الدنيا ما اختلف إلى هذه العقول النيرة ، وعاش الرضي

(١) الجاحظ ٩٦ صفحة ـ ابن المقفع ٩٦ صفحة ـ ابن العميد ١٤٤ صفحة ـ الصاحب ٢٥٦ صفحة ـ الفرزدق ١١٢ صفحة ، وكلها من القطع المتوسط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بين جدران « المدرسة العادلية »[1] شعوراً جميلة أعاد إليها جهاد العلم ، وانتصار الثقافة ، وسمو الانتاج .

وفي سنة ١٩٤٢ ، شاءت الحكومة أن تختطف العلامة الأديب من جدران المجمع لتجعله وزيراً للمعارف في ظروف قلقة ، فترك ما بين يديه من دواوين إلى حين . ولكنه عاد بعد ذلك إلى أمانة السر لتقر به عيون الأعضاء ، ويفرح به الرئيس الجليل .

ومنذ سنة ١٩٤٦ ، أصبح العلامة الفقيد يحيا حياة جديدة أحبها منذ صباه ، وهي العكوف على المصادر القديمة ، واحياء الشعر الشامي يترنم به ويتغنى ، ويبحث وينقب ، حتى عرف كل حيّ من أحياء دمشق في قديمه وحديثه ، وأتقن كل لفظة دمشقية جاءت على لسان الشعراء قبله ، فغدا مرجعاً وثقة في هذا ، كما كان رئيسه ثقة في تاريخ الشام وحضارة الإسلام . والذين يتذوقون الأدب القديم ويعشقون الرحلة في مطاويه ، ويصبرون على التجوال في هوامش الكتب يجدون في تعليقات علامتنا سطوراً لا تضاهيها صفحات كثيرة ، ففيها من اللذة والجمال ما ليس في كتابات كثير من المصريين المجددين المتأدبين ، فهي حدائق من الأدب لا يسمو اليها خيالهم ، ولا تحملهم اليها قوائمهم .

وهذه التعليقات نجدها في الدواوين التي حققها فقيدنا واحداً إثر واحد على كمال متصاعد ، ما يزال يحسّن فيه حتى يبلغ الذروة . فقد حقق ديوان ابن عنين الدمشقي سنة ١٩٤٦ ، وديوان عليّ بن الجهم سنة ١٩٤٩ ، وديوان ابن حيوس سنة ١٩٥١ ، ثم ديوان ابن الخياط سنة ١٩٥٨ . وطبعها كلّها المجمع العلمي بدمشق ، وصدّرها علامتنا بمقدمات ودراسات تقارب كلّ مقدمة منها خمسين صفحة ، لو جمع بعضها إلى بعض ، ولو جردت من صدور الدواوين

(١) عمر المجمع العلمي العربي منذ نشأته إلى اليوم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لكانت تاريخاً للأدب في الشام ، بكل الدراسة التي أنشأها عن القرن الثالث للهجرة في صدر شبابه . فقد كان الفقيد منسجماً مع ماضيه يسير على خط مستقيم في عمله ، يعرف كيف بدأ ويعرف كيف يتم ، لا يصرفه نقد بعض المتنطعين لأعماله وأعمال المجمع ، ولا يغضبه قولهم فيه ، فهم يرون أن التحقيق والنشر من العبث والترف ، ويظنون أن الأدب كل الأدب قصة تنشر وقصيدة تخطر ، ومقالة تروج ، وخطبة تلقى فحسب .

وقد كان الفقيد يلقى عند المستشرقين اكباراً واعجاباً وثناء لو جمع في ذكراه لأغنى القائلين في مدحه ، كما كان يلقى عند رصفائه من أعضاء المجامع العربية والدولية إكباراً وثناء ، فتهافتت عليه المجامع العلمية والمدارس العالية تهدي اليه عضويتها ، وتلتمس اليه قبول الانتساب اليها . فانتخبه مجمع اللغة بمصر عضواً سنة ١٩٤٨ ، والمجمع العلمي العراقي عضواً كذلك سنة ١٩٤٩ ، ومدرسة الدراسات الشرقية بلندن عضواً سنة ١٩٥١ ، ودائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين عضواً في تحريرها سنة ١٩٥١ ، ومجمع البحر المتوسط في بالرمو عضواً سنة ١٩٥٢ ، والمجمع العلمي السوفياتي عضواً سنة ١٩٥٨ .

وفي سنة ١٩٥١ ، عادت اليه الحكومة السورية لتدعوه الى تسنم منصب وزير مفوض لها في بغداد ، فسافر اليها وكان فيها موضع الحب والتقدير ، وغدت دارتنا هناك ملتقى العرب الأعلام .

وفي سنة ١٩٥٣ اختير وزيراً للخارجية .

وفي السنة نفسها ، انتخب رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق ، فبلغ أعلى ما يطمح اليه عالم وأديب ، وقضى أماني قلبه ووثبات روحه واشراقة نفسه ، وأصبح في الذروة تعقد عليه الآمال وترنو اليه الأبصار .

فلما انصرف عن السياسة والمناصب ، عاد الى المجمع العلمي ليسير بمنشوراته العلمية سيرة مجامع الغرب ، فاطرد العمل ومضت المجلة في ثوبها الجديد ، تثب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في قوة وجلاء حتى قطعت إلى اليوم من عمرها قرابة أربعين سنة ، وقد كان فقيدنا يقطعها أجمل ساعاته ويخصها بأخصب عنايته ، يكاد يقرأ مقالاتها كلها قبل النشر ، ويراقب ترتيبها ، ويبحث على المضي في طبعها وتصحيحها ، واخراجها في نظام موقوت ، فكأنها قطعة من حياته ، كما كانت قطعة من حياة سلفه قبله .

أما مطبوعات المجمع فكان يعمل لها في جدّ متواصل ينظر فيها ويدققها كأنها بقلمه ، وكم راجع أصحابها وزودهم بما يعرف من أمور ، واشترك معهم في التعليق والتصويب . وكان بهذا الحرص المتواضع والجهد الدائم يدفع الشباب إلى العمل ، ويحبب برسالة المجمع ، ويستزيد من الأصدقاء ، ويجمع حوله القلوب .

ولم يكن يدفع إلى الإنتاج فحسب ، وإنما كان يضرب الأمثال بنفسه ، فيجبر المقالات في دراسة الأدب ونقده وتحقيق نصوصه كما كان يفعل منذ أول نشأته في « الرابطة الأدبية » . فهو في السنين من عمره كما كان في الخامسة والعشرين ، يعشق الأدب ، ويميل إلى التحقيق ، فيقبل على شعره يسجل همسات خاطره ، ويقبل على شعر أهل الشام فيعنى به ، وكان آخر انتاجه « ديوان ابن الخياط » ـ الذي ذكرناه ـ أتمه قبل عام من وفاته على أحسن ما يصنع المحققون في العالم العربي ، فحشد له ثماني نسخ خطية ، جمعها من أطراف الدنيا ، وسار في التعليق عليها وموازنتها سيراً لا انقطاع فيه ، فاذا خلا من زواره انقلب إلى عمله يرسم بخطه الجميل أبيات الشعر ، كما رسم غيره من الدواوين لا يعتمد على ناسخ أو ناقل ، فكأنه في الثلاثين من عمره جداً وجهاداً ، لا يفتر ولا يني ، حتى ملك الإتقان في هذا الديوان ، وكان لنا شرف الحديث عنه في مجلة المجمع [1] ، فألمعنا إلى أياديه على الجيل في هذا الكتاب وفي غيره ، وبسطنا خطته في تأريخ الأدب العربي لإقليمنا ـ كما قلنا ـ ورجونا أن يتم

(١) انظر المجلد ٣٤ ، سنة ١٩٥٩ (ص ١٢٦ - ١٣٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السلسلة إلى القرن السابع الهجري حيث وقف الشعر العربي عن فيض إبداعه .
ولو قد مد الله في عمر الفقيد لعمد إلى طبع ابن منير الطرابلسي وابن القيسراني ، وقد حدثني عنهما ، وأطال في الشوق إلى اخراجهما ، فوفر لها النسخ والمصادر ولكن المنية بالمرصاد للنفوس الكبيرة الجاهدة التي تستقل ساعات الحياة دون تحقيق مشاريعها الضخمة .

ولعلّ هذا الإجهاد من غير راحة بعد بلوغه الستين قد أضر بجسمه ، فأورده موارد المرض والعلة ، فأقعده عن السعي الى المجمع ، فافتقده إخوانه وصحبه وهم كثر ، ورأوا مكانه خالياً لا يسد ، فلا مرجع يرجعون اليه ، ولا مشير يعلقون على رأيه الأمل . فقد كان مستودع الأسرار ، شديد الحرص عليها وفياً لصحبه ، جميل التواضع ، كأنّ الشعر الرفيع سكب عليه برداً من أجمل أبراده ، فكساه بأجمل الحلي وزينه بأنقى الصفات . فقد كان رحمه الله صورة للرقة في حديثه ومجلسه ، ما تنقطع بشاشته عن خدينه ، حتى لكأنه ورد الربيع ينشر العطر ، ويجمّل الذكر ويكسو الحديث أطيب النكهة . فما عرفنا أن لسانه الحييّ المتردد انطلق مرة إلاّ في خير الناس ونفع الأدب ، وخدمة المجمع ومجد العرب . وكانت عيناه الواسعتان تشعان أبداً بنور النبل والحياء الجم والتواضع الجميل تفرحان للجمال ، وتضحكان للنكتة البريئة ، وتسبران غور المحدث ، وكان في حركاته مثالاً للرجل الرصين الرزين الوقور ، على مر السنين : فتى يافعاً ، وأديباً ناشئاً ، ومدرساً نافعاً ، وعضواً عاملاً ، ووزيراً متواضعاً ، ورئيساً مخلصاً ، تقلّب في حياته على الغنى والجاه وتنقل في المراتب والمناصب ، فما أبطرته ولا أسكرته ، لأنه كان فوق ما أعطته ، وكانت دون ما يستحق .

ولهذا غدت سيرته في صحبه ورصفائه من أعضاء المجمع وأصدقائه الأدباء نفحة عطر وأوراق زهر وصفحات خلود وسطور أمجاد ، ما يستطيع قلمها أو تي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من قوة أن يرسم مبلغ صفائها ونقائها ، وما يبلغ بيان إلى وفائها حقها . فهي جوانب كثيرة لا يلم بها مقال مهما طال ، لأنها أخذت من كل روض وجمعت من كل أفق فغدت باقة في الاعمار ، كلما كشفنا عن زهرة منها فاح عبق ، وكلما قلبنا ورقة منها ملأت وجه الأفق ، فهي سيرة تفيض على السنين التي عاشها ، ولا تعد الأعمار الكريمة بالأعوام ، ففي كل مرحلة من مراحل عيشه التي ألمعنا اليها أثر كبير وخير كريم .

وقد حاولنا في هذه الصفحات أن نوجز في سيرته لنصف فاجعة المجمع العلمي العربي ، وحزن المجتمع ، وثكل الشعر وحداد الأدب ، وألم المحبين والصحب والأهل ، فقد فقدوا شاعراً محلقاً ، وأديباً محققاً ، ورئيساً لا يجارى ، وصديقاً وفياً لا يبارى ، وإماماً في التواضع والنبل لا تنسى محامده على الزمان .

رحمه الله رحمة واسعة ، وألهمنا العزاء والسلوان على فقده .

الدكتور محمد سامي الدهان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net